جيلاس ونقد نظرية «الإغتراب» عند ماركس

ميهايلو ميهايلوف*

في شهر أيار - مايو من عام ١٩٧١، نشر مليوفان جيلاس مقالا في مجلة «انكاونتر» حمل في نسخته الاصلية[١] العنوان التالي: «**الاغتراب... فلسفة انسانية**»، وكان موجهاً، في خطوطه العامة، ضد نظرية كارل ماركس في الاغتراب/الاستلاب.

إذا تذكرنا ان من المسموح به توجيه الانتقاد علناً الى ستالين والستالينية في يوغسلافيا، الا انه ما زال يتعذر على المرء، للأسف، إبداء اي رأي صريح حول ماركس ولينين، ناهيك عن استحالة التلميح الى كون الستالينية ليست انحرافاً عن اللينينية والماركسية، بل هي بالحري، النتاج المنطقي للتعاليم الماركسية... واذا تذكرنا أيضاً ان جيلاس ما يزال ممنوعاً عن نشر كتاباته في بلده، يتضح للقارىء مدى دقة وحساسية الموقف

---

* ميهايلو ميهايلوف:

ينتمي الى الجيل الجديد من المثقفين اليوغسلاف وهو استاذ الادب الروسي في جامعة زغرب، معارض لسياسة الاتحاد السوفياتي تجاه يوغسلافيا. ويُعتبر من أوائل المثقفين الذين يطالبون بالحريات العامة وإقامة نظام الحزبيْن. وهو يشدد دائماً على ان الدعوة التي أطلقها الرئيس تيتو على الصعيد الاشتراكي لم تجد سبيلها الى التطبيق. اعتقل مراراً. ومن أسباب عتقاله الأساسية تكراره القول بان يوغسلافيا ما زالت توتاليتارية على رغم مواقفها من الاتحاد السوفياتي.

معظم مؤلفاته عبارة عن مقالات تنشرها الصحف اليوغسلافية، وبخاصة مجلة «براكسس» التي يكتب فيها الاشتراكيون الليبراليون. صدر له كتاب ينتقد فيه التجربة الاشتراكية على النمط السوفياتي، وهو بعنوان: «صيف موسكو ٦٦».

الذي ينطوي عليه الدخول معه في جدال أو نقاش. الواقع انه يستحيل، ولأسباب سياسية، نقد كتب جيلاس ومقالاته او حتى مجرد التعليق عليها داخل يوغسلافيا؛ في حين ان أي نقد موجّه من العالم الديمقراطي يمكن استغلاله من جانب المسؤولين اليوغسلاف بغية الحطّ من سمعة جيلاس بين مواطنيه، مستخدمين الحجة القائلة: «انظروا انهم لا يقيمون اي اعتبار لجيلاس في الغرب أيضاً!».

بيد انه، نظراً الى تطابق ظروفنا نحن الاثنين، أحسب انني الشخص الوحيد المؤهل، هذه الأيام، للدخول في نقاش مع جيلاس على قدم المساواة، وبدون التورط في إثارة اية ضغينة سياسية. فمنذ أعوام وأنا أبدي رأيي صراحةً لصالح جيلاس في كتاباتي، وأنا الآن، شأنه تماماً، محروم من حق النشر في بلدي.

ان الانجازات والمساهمات التي أسداها جيلاس في كشفه وتحليله للتوتاليتارية الشيوعية لا يمكن إلا ان تكون على جانب كبير من الأهمية. كما ان كتابه «**الطبقة الجديدة**» سيبقى، ولا شك، واحداً من الأسفار الرئيسةِ حول الشيوعية والستالينية. ولكن، فيما يظل جيلاس في «الطبقة الجديدة» شيوعياً وماركسياً، أي أن المجتمع الجديد الذي ساهم هو نفسه مساهمة نشيطة في خلقه يُنتقد من موقع ماركسي لبُّه التصوّر المثالي عن «المجتمع الكامل»، وعن المساواة واللاطبقية التامة، فانه ينطلق في كتابه النظري الآخر «**المجتمع غير الكامل**» لينقد فكرة المجتمع اللاطبقي عينها. وفي مقاله «الاغتراب... فلسفة انسانية»، يحاول جيلاس تسديد ضربة مباشرة الى لُبّ الماركسية بالذات، أعني نظرية ماركس في الاغتراب/الاستلاب. فالهجوم، هذه المرة، ليس موجهاً ضد الستالينية، أو حتى ضد اللينينية، بل نحو جميع التيارات المعاصرة للنيوماركسية، وبوجه خاص نحو اليسار الجديد الذي يرى فيه جيلاس، عن حق، الوليد الأيديولوجي للتوتاليتارية غير المستنفَدة.

يمكن الانطلاق في نقدنا للماركسية من وجهات نظر عديدة: فبالامكان، أولا، التدليل مثلا على ان اغتراب الانسان ليس مشروطاً بعوامل اجتماعية حصراً، وبالتالي، فان تغيير هذه العوامل وحدها لا يؤدي الى حل المشكلة الاجتماعية؛ وبالمستطاع، ثانياً، إثبات ان إلغاء الملكية الخاصة لا يفضي أبداً الى التخلص من تقسيم العمل، ولا الى غياب المجتمع الطبقي نفسه؛ ويمكن، ثالثاً، تفنيد الفكرة القائلة بأن الصراع الطبقي هو القوة المحركة لكامل سيرورة التطور البشري؛ وبالمقدور، رابعاً، إنكار التصور بأن إدخال «ديكتاتورية البروليتاريا» سوف يؤدي الى تلاشي واضمحلال الدولة باتجاه إقامة ملكوت الحرية... وهلمجرا.

مع ذلك، فان جدّة جيلاس لا تكمن في دحضه لماركس، للطريقة التي يقترح بها تحرير الانسان وإزالة «الاغتراب» الانساني، بقدر ما تكمن في توكيده على ان «الاغتراب» ليس شراً بأي حال، وانه ليس سوى حالة انسانية. بعبارة اخرى، ان جيلاس لا ينتقد ماركس من احدى الزوايا المعهودة، بمعنى ان الطريقة عينها التي تُتّبع لاقامة «الملكوت على الأرض» لا تنتهي الى الحرية بل الى الاستعباد؛ وان تحقيق المجتمع

اللاطبقي وتحقيق الشيوعية غير ممكنين على الاطلاق. وحتى اذا كان تحقيق المجتمع اللاطبقي والشيوعية أمراً ممكناً، من الوجهة الظاهرية، فان مجتمعاً كهذا لا يمكن ان يمتّ بصلة الى الحرية الانسانية، ولسوف يعني فقط الموت الروحي، ومن ثم الموت الجسدي للبشرية. وعليه، فان البحث عن وسيلة لخلق نمط محتمل للحياة لا بد ان يسلك، حتماً، وجهة أخرى مختلفة كلياً.

كلا، ان نقطة انطلاق جيلاس في نقده لتحقيق «الفردوس الأرضي» ليست أحد المنطلقات الأساسية الثلاثة المذكورة آنفاً، وانما يبادر جيلاس فوراً الى القول، بذلك التصميم وتلك الجرأة المعروفين عنه، ان لا وجود أبداً لأي اغتراب للانسان؛ وأن ما دأب ماركس، وكل الماركسيين الآخرين، على اعتباره شراً ووصفوه بـ «الاغتراب» ما هو في الحقيقة إلا خير الى أبعد الحدود، ولا يُمثّل سوى الحالة الانسانية تقريباً، ولذلك، فلا حاجة هناك البتة الى أي تحرير أو «فردوس أرضي».

هذه الفكرة الأساسية هي التي تحملني على الظهور ههنا في هذا الدور الغريب... دور المُدافع عن ماركس في وجه جيلاس رغم اني أشاطره، عموماً، الرأي في نواحٍ أخرى كثيرة. ولعل ما يزيد في غرابة الموقف هذا كوني لست ماركسياً قط.

على كل حال، آمل ان أوفّق في التدليل على ان جيلاس، حتى وإنْ بدا ظاهرياً ذلك المناوىء الجذري لبعض المنطلقات الأساسية للماركسية، فانه ما برح يُعد ماركسياً حتى في نقده. بتعبير آخر، سأحاول، انا الذي لست ماركسياً، ان أدافع عن شيء في ماركس اعتبره صحيحاً ويُهاجمه جيلاس من موقع أعتبره أنا، تمشياً مع تفكير ماركس الخاص، خاطئاً. وتنويراً للقارىء، أرى ضرورة تحليل فكرة جيلاس المبتكرة، لأن هذه الفكرة توفر مثلاً ممتازاً على استحالة نقد ماركس من خلال البقاء على ذات الأرضية الروحية للعقلانية الاوروبية التي منها انبثق ماركس نفسه وتطور.

* * *

على الرغم من أن نظرية الاغتراب/الاستلاب تُشكّل، على حد تعبير جيلاس الصائب، الشطر الأقل وضوحاً في تعاليم ماركس، الا أنها تحوي مع ذلك المنطلق الأساسي، او ربما المبدأ الجوهري المحرك للمذهب الشيوعي برمتّه. زد على ذلك أن مفهوم «الاغتراب» ماثل ضمنياً في أعمال لينين، وستالين وماوتسي تونغ، على الرغم من انهم لا يشيرون اليه بإشارة صريحة.

ان الصياغة المبسّطة للمفهوم ترد على النحو التالي: «العالم معتل (نظرية الاغتراب)، ولا بد من مداواته (نظرية الشيوعية وممارستها)». وكما اشرت سابقاً، فان الانتقاد الموجه الى الماركسية يتكوّن عادةً من رفض القبول بتشخيص المرض، الاعتلال (أي أسبابه)، او أسلوب معالجته. أما جيلاس فيدّعي عدم وجود اي اعتلال؛ وعليه، فهو يقطع بانتقاء اي ضرورة للعلاج.

لا شك في ان هذه الفذلكة جديدة كل الجدّة. غير انه يستحسن، درءاً للوقوع في خطأ اصطلاحي حصراً، إجراء مقارنة سريعة بين ما يفهمه ماركس من «الاغتراب» وما يعنيه جيلاس بهذا التعبير.

لا بد من المبادرة فوراً الى التوضيح ان جوهر الاغتراب الانساني كان يعني، بالنسبة الى ماركس، غياب الحرية، استعباد الانسان؛ هذا الغياب الذي يعود أساساً الى النظام الاجتماعي للملكية الخاصة والانتاج السلعي. ولا حاجة بنا هنا الى الغوص في تحليل مفهوم ماركس عن «الصنمية السلعية»، الخ؛ حيث أن تحليلاً كهذا لا يوضّح سوى ما يراه ماركس كأسباب لافتقار الانسان الى الحرية. ان أقلّ الناس حريةً، في نظر ماركس، هو العامل الأجير عند الرأسمالي. ومن الأهمية البالغة بمكان ان نشير الى ان ماركس كان يرى الاغتراب/الاستلاب في نتيجة الانتاج وفي عملية الانتاج على السواء. يقول ماركس: «ان العمل خارجي عن العامل، أي أنه لا يمت الى كينونته الجوهرية... وهكذا، فانه في عمله لا يؤكد ذاته بل ينكرها ... لا ينمّي طاقاته الجسدية والعقلية بحرية وانما يُميت جسده ويدمّر عقله. العامل، إذن، لا يستشعر نفسه إلا خارج العمل، وفي عمله يستشعر خارج ذاته... من هنا فان عمله ليس طوعياً بل اجباري: **انه عمل قسري**»[٢].

ومن غير الدخول في بحث او مناقشة نظريات ماركس حول أسباب افتقاد الانسان للحرية ـ الاكراه، العمل القسري، الخ ـ تكمن ههنا اهمية من الدرجة الاولى. فهذا الغياب للحرية يجعل التطور الحر والطليق للقوى الخلاّقة متعذراً بالنسبة الى الغالبية الغالبة من البشرية. بهذا المعنى، وبه وحده، يستخدم ماركس مفهوم الاغتراب/الاستلاب. لذا، يمكن القول، بناءً على المعنى الماركسي هذا، ان معسكرات العمل القسري (السخرة) الالمانية أو السوفياتية، حيث تقلّصت حرية الانسان الى أدنى حد، كانت تُشكّل أمثلة صارخة على اغتراب/استلاب الانسان. ولعل جيلاس لم يخطىء كبد الحقيقة عندما أشار الى ان الاغتراب/الاستلاب بالنسبة الى ماركس ما هو إلا تعبير آخر عن استغلال العمل، وان عوارض الاغتراب لدى الانسان الفردي، المغترب، غير الحر، تظهر تطابقاً، شديداً مع العوارض العُصابية. لقد كان ماركس على حق حين قال انه بقدر ما تزداد درجة اللاحرية التي يتعرض لها الانسان، يتواتر ظهور العُصاب السريري الحقيقي. على اي حال، المهم هنا هو التأكيد مجدداً على ان الاغتراب/الاستلاب عند ماركس انما يتطابق مع فقدان الحرية.

ما هو «الاغتراب» إذن بالنسبة الى جيلاس؟ كتب جيلاس يقول: «لا يمكن ان يكون هناك شك على الاطلاق في ان الانسان عندما يكتشف حقيقة ما، او حين يُبدع عملاً فنياً ما، او حين يُحسِّن مهارة ما. فانما يصبّ في خلائقه، أي يستلب لها، طاقاته، مشاعره، ذكاءه... الانسان إنسان بقدر ما يبتعد بأعماله ـ «يغترب» بنفسه ـ عن الشروط الحياتية التي أعطته الطبيعة إياها... وترتيبا على ذلك، فانه ليس بسبب من

ان طريقة الانتاج هذه او تلك (وضعه الاجتماعي) تتّصف بهذه الخاصية او تلك، « يغترب » الانسان عنها، بل لإنه (ولأنه عندئذ فقط) لا يمكنه الاحتفاظ ببقائه في مثل هذه الظروف مدة أطول. ان سيرورة الاغتراب تُمثّل سبيلاً للوجود البشري، وان تقسيم العمل المتزايد أبداً يُضاعف، فعلا، من شدة الاغتراب ويزيده تعقيداً. لكن ذلك لا يغيّر شيئاً من واقع الأمر وهو أنه حتى الانسان البدائي يحكم على نفسه بالاغتراب حالما يبدأ بالتفكير والتصرف خلافاً للحيوانات... ».

ويتوسع جيلاس أكثر في بسط مفهومه للاغتراب على الوجه التالي:

« في كل مرة يُحقق الانسان، بأي عملٍ يأتيه، شيئاً جديداً من الوجهة الجوهرية او الجذرية، فانه يحكم على نفسه بالاغتراب. فلا مفر من أن يجعل نفسه غريباً عن الاوضاع والظروف التي عاش في ظلها حتى الآن. بكلام ثانٍ، كلما خلق، وبقدر ما يخلق، يحكم الانسان على نفسه بالاغتراب... والواقع ان العباقرة والنوابغ يخلقون أشكالاً جديدة بابتعادهم عن الأشكال التي وجدوها... ولكي يحدث هذا الاغتراب، يحتاج الامر الى اكثر من مجرد موهبة؛ يحتاج الى جهد فكري (عقلي) وعاطفي (انفعالي) داخلي، تعجز أية عقبة خارجية، اجتماعية كانت أم مادية، عن ايقافه... ان كل عمل بشري، عمل يخلق شيئاً جديداً، هو في الوقت نفسه اغتراب عن القديم، عن القائم (الموجود)... والاغتراب عن الطبيعة يتضح جلياً كسيرورة طويلة المدى، وهو ليس سوى تبديل (تغيير) يقوم به الانسان لظروف وجوده من خلال إدخال التحسينات التقنية وغيرها... ففي سياق عملية الاغتراب هذه، لا يكفّ الانسان عن كون ما هو، بل يغدو اكثر استقلالية، اكثر اغتراباً عن الطبيعة. يغدو الانسان انساناً بتغريب نفسه... وليس لهذا الاغتراب عن الطبيعة، ولهذا الاغتراب « المحض » روحي، من نهاية؛ مثلما لا توجد نهاية للكون الذي نحن جزء منه، والذي فيه نحيا (ننوجد)... ان التغيير، الاغتراب الذي أتحدث عنه هنا، تغيير شخصي وغير مقيّد... وهكذا يتبدّى لنا الكائن البشري خلاّقاً، ومن ثم غير مُتناهٍ وفي إبداعيته وكينونته. إن الانسان المغترب، الخلاّق، هو احد اوجه البشرية... إنه يطمح الى انجاز الاغتراب ـ الغلبة المطلقة على الطبيعة. ذلك انه مجرد صبوة، جزء لا يتجزأ من الحركة المتواصلة نحو ظروف جديدة وامكانيات جديدة ».

لا غرابة بعد ذلك ان نسمع جيلاس يهتف عالياً، في ذروة مديحه للاغتراب: « أنا أغترب، اذن أنا انسان! »

لا حاجة بعد الآن، على ما يظهر، الى البحث في تقسيم جيلاس للاغتراب الى ثلاثة ضروب مختلفة: الاغتراب عن المجتمع؛ الاغتراب عن الطبيعة والاغتراب عن الذات؛ لا سيما ان جيلاس نفسه كتب عن

الضرب الثالث قائلاً: «وهذا بنظري أكثر جوانب الاغتراب غموضاً...». مهما يكن من أمر، ثمة شيء آخر يبدو واضحاً كل الوضوح هنا، وهو ان «الاغتراب»، الذي يمجده جيلاس الى هذا الحد، يختلف تمام الاختلاف عن، ولا يمت بأية صلة الى، الاغتراب الذي يتكلم عنه ماركس. لا بل أعتقد جازماً ان ماركس ما كان ليتردد لحظة في التوقيع باسمه على نص جيلاس حول «الاغتراب» بضمير مرتاح، لو أُجري فقط تعديل إصطلاحي طفيف، تعديل يُستبدَل بموجبه تعبير «الاغتراب» الذي يستخدمه جيلاس بأحد التعابير المألوفة اكثر للدلالة على التجليات التي يصفها، وهي بالاسم: التقدم، الابداعية، النشوء، الثورة. وبصيغة اكثر اقتضاباً وأكثر تحديداً قدر الإمكان نقول: إن ما يدعوه جيلاس «اغتراباً»، أسماه ماركس «تطبيقاً عملياً».

إن وصف جيلاس لـ «الاغتراب» يُشكل مثالاً رائعاً على أطروحة ماركس حول فيورباخ فيما يتعلق بـ «تغيُّر الموجود». ومن الجلي ان نقد جيلاس لماركس ليس سوى نقد في الظاهر فقط. فـ «اغتراب» جيلاس متحول نحو شروط افضل للحياة؛ شروط اكثر انسانية لحالة الوجود. بالنسبة الى ماركس، الاغتراب هو حالة الوجود الواجب تغييرها، او على حد تعبير جيلاس، «تغريبها» وهذا التناقض ليس إلا تناقضاً ظاهرياً. وعلى عكس الرغبة في تسديد ضربة الى الماركسية، يبقى عمل جيلاس حول «الاغتراب» ضمن إطار الفكر الماركسي تماماً. حسبنا ان نبدّل العبارات فقط لنجد ان لا فرق حقيقياً البتة ما بين ماركس وجيلاس. ماركس يقول العالم يجب تغييره، وجيلاس يقول العالم يجب «تغريبه». ولكن ما يعنيه كلاهما بهذين الاصطلاحين هو الشيء عينه تقريباً.

والغريب في الأمر ان جيلاس لم يفطن الى انه يردد، بالتفصيل، ما كان هيغل وماركس قد قالاه بصدد «الاغتراب»، فيما عدا انهما يسميان العملية «محو الاغتراب». لقد كتب جيلاس نفسه يقول ما مؤداه ان المعرفة التصاعدية، اي ادراك العالم، تُمثل بالنسبة الى هيغل التغلب على (قهر) الاغتراب. في حين ان «الاغتراب»، بنظر جيلاس، ليس سوى تغيير الانسان ـ من خلال التحسينات التقنية وغيرها ـ لظروف وجوده... اي ان الاغتراب هو تحسين التقنية والانتاج... والانسان، الانسان المغترب، الخلاّق، يطمح الى استكمال وانجاز عملية التغريب... وصولاً الى بسط الهيمنة المطلقة على الطبيعة. بعبارة اخرى، في حين يقوم الهدف من الحركة الشيوعية عند ماركس في خلق مجتمع يتسنّى فيه للانسان غير المغترب ان ينمّي ويطوّر بحرية كل طاقاته؛ أي يخلق، يبدع، فإن الانسان المغترب، بالنسبة الى جيلاس، هو عينه الانسان الخلاّق، المبدع.

والأدعى الى العجب هو ما يكتبه جيلاس من «أنه لا وجود لأي اغتراب بالمعنى الذي قصده ماركس»، طالما «ان الاغتراب هو حالة انسانية بينما يُشكل الاستغلال علاقة اجتماعية»، وهما بالتالي غير متطابقين. على كل حال، الاغتراب بالنسبة الى ماركس أيضاً ما هو إلا عاقبة الاستغلال، اي حالة ناشئة عن علاقات اجتماعية. لذلك يتعذّر حتى على جيلاس نفسه ان يتجنّب استخدام مفهوم الاغتراب بالمعنى الذي

عناه ماركس عوضاً عن المعنى الذي قصده هو. لقد كتب جيلاس عن النيوماركسيين يقول: «ألا يُمثّل الهروب المعاصر الى نظرية الاغتراب احد عوارض الاغتراب عن الواقع وعن اغتراب الانسان عن عقله هو؟ ألا يعادل ذلك، مرة أخرى، تخلّي المرء عن كينونته لقوى اخرى؟».

وعلى هذا المنوال، إنما بروح الماركسية الكلاسيكية تماماً يقول جيلاس في موضع آخر: «ان الثورة الصناعية التي أذنت بانطلاقة عملية لا سابقة لها... قد رافقها استغلال شديد ووحشية هوجاء بحق العمال والفلاحين». بينما يتوجه جيلاس الى المجتمعات الاشتراكية من زاوية كونها لم تطلق حرية الانسان. والاستنتاج المنطقي من ذلك هو ان «الاشتراكية» المزعومة لا تحرر الانسان؛ وليس ان الحرية غير ضرورية كما يُحتمل ان نفهم جيلاس اذا ما وقعنا أسرى التعقيدات الاصطلاحية وأعاق سعينا الاستخدامُ غير المألوف لمفهوم «الاغتراب».

اليكم، اذن، ما يقوله جيلاس: «ان الاغتراب، اغتراب الانسان في الطبيعة [هيغل] او في الرب [فيورباخ] قد حلّه ماركس بفرضيته الداعية الى وجوب تغيير العالم الواقعي». وهذا ما يعتقده جيلاس هو الآخر، باستثناء انه يستبدل كلمة «تغيير» بكلمة «تغريب». وعلى هذا النسق، يمكننا ان نتوقّع إشادة وتسبيحاً بحمد جميع الثورات، بما فيها الثورة الشيوعية، بوصفها أمثلة عن الاغتراب - وفقاً لما يقوله جيلاس - وهكذا فان أول سؤال يتبادر الى الذهن هو: «ما الذي يريده جيلاس بالضبط؟» أليس تمجيده «الاغتراب» تعبيراً عن قصر نظره الروحي؟.

المسألة، في الحقيقة، ليست كذلك. ولا يسعنا هنا إلا ان نأسف لعدم إلتزام جيلاس بالمعنى الذي حمَّله ماركس لعبارة «الاغتراب». لأنه لو كان فعل ذلك لكانت أفكاره قطعاً أكثر وضوحاً بكثير، ولهانت علينا بالتأكيد سُبُل النقاش.

* * *

تتكشف ماهية الخلاف الحقيقي بكليته، وليس فقط الاختلاف الاصطلاحي الصرف، ما بين ماركس وجيلاس في قول هذا الأخير: «لا يسع الانسان ان يعود إلى جوهره الخاص، لأنه لم يفارقه قط»... تلك هي نقطة الخلاف الأساسية.

على الرغم من ان المنظور الماركسي برمتّه متجذّر في التاريخ، ومُسقَط عليه، فانك لتجد أيضاً في داخله نواة دينية - ميتافيزيقية تحركه، وفي الوقت نفسه تتعارض باستمرار مع الفكرة الماركسية (وغير الماركسية في الواقع) فيما يخصّ التقدم التاريخي. ومن هنا بالذات منشأ كل التضاربات والتعارضات الاخرى: «ملكوت الحرية» يخرج الى حيز الوجود عن طريق الدكتاتورية؛ التطور التقني يؤدي، افتراضاً، الى إزالة تقسيم العمل... الخ. هذه النواة المحرِّكة، وفي الوقت نفسه اللُبّ الديني - الميتافيزيقي الأعمق للماركسية،

تتلبّس اكثر تعبيراتها وضوحاً في نظرية ماركس حول الاغتراب/الاستلاب.

يلاحظ جيلاس بصواب تام ان مفهوم « الاغتراب » (بمعناه الماركسي) يتصف بطابع ديني مستتر. وقد كان بميسوره هنا ان يستشهد ببولس الرسول الذي لم يتكلم عن اغتراب واستعباد الانسان فحسب، بل وعن اغتراب واستعباد كل كائن حي يخضع لـ « سُنّة الفناء » « ويئنّ في عذاب بانتظار المخلص ». فاذا كان الانسان، بتعبير ديني محض، مغترباً عن الرب، أي عن الحرية، وخاضعاً لسُنن الطبيعة، بدلاً من أن يكون سيداً عليها، كما كان الحال لحظة بدء الخليقة طبقاً لرواية « الخرافة الكبرى »، فانه (اي الانسان)، وطبقاً لماركس الذي لم يعد يؤمن بـ « الخرافة الكبرى » بعد اليوم، انسان مغترب عن وجوده الجامع (الجنسي) المفترض ان يكون فيه حراً، ولسوف يعود الى جوهره الجنسي في « ملكوت الحرية » القيد ذلك الذي يتجسّد في التاريخ.

وهكذا، استناداً الى الانجيل وماركس كليهما، فالانسان مغترب عن الحرية. وها هنا بالضبط تكمن علّة (مرض) البشرية. ولا يختلف الانجيل عن ماركس إلا في رؤيتها لأسباب الاعتلال وطريقة علاجه. ومع ذلك، فان الجوهر الأساسي للانسان بنظر الانجيل او ماركس، أعني الحرية، لا يُشكل مقولة تاريخية بحد ذاتها. ففي حين يحجم الانجيل احجاماً تاماً عن تنصيب « ملكوت الحرية » ضمن هيكل التاريخ، يقوم ماركس، المؤمن بالتاريخ وحده والجاحد لكل أشكال الابهام والفكر المتعالي، بوضع « ملكوت الحرية » في صميم المنظور التاريخي لهذا العالم. واذا كان لنا ان نبقى على خط مستقيم ضمن إطار فكرة التقدم التاريخي كما يشتهي ماركس، لتعيّن علينا حُكماً ان نجزم مع جيلاس: « لا يسع الانسان ان يعود الى جوهره الخاص، لانه لم يفارقه قط ». واذا كان الأمر كذلك، فان الاغتراب لا يمكن ان يحدث إلاّ عن الحالة القائمة؛ ولا بد ان يتوفر بالتالي سبب نفساني أكثر قابلية للفهم كي يُبدّل جيلاس مفهومه عن الاغتراب.

في مستهل التاريخ، لم تكن هناك حرية لا بالمعنى الانجيلي ولا بالمعنى الماركسي للكلمة. لكن التقدم التاريخي، وبخاصة التقدم العلمي ـ التقني، أخذ يدفع الانسان مع كل خطوة من خطواته الى حياة أوفر حرية باستمرار. ومثل هذا التطور لا يقف عند حد. فكما نعلم جميعاً، وكما أشار جيلاس، لقد مشى رواد عربة أبولو الفضائية على سطح القمر! من هنا نستطيع ان نخلص، من وجهة نظر التطور التاريخي، الى ان جيلاس أثبت وأكثر تماسكاً « ماركسياً » من ماركس.

على ان فكرة التقدم التاريخي هذه تتطلب، للأسف، جواباً على مسألة الاتجاه الذي سيتخذه هذا التقدم، واحتمالات تأثير الانسان في ذلك الاتجاه. لكن، طبقاً لما يقوله جيلاس، يبدو ان ذلك التقدم، او ما يسميه هو « الاغتراب »، سوف يؤدي وبصورة آلية الى الأنسنة الاكبر للانسان ـ السيادة على الطبيعة، الخ ـ؛

«لأن الانسان هو انسان». وهكذا ليس التقدم التاريخي سوى التطور الطبيعي للانسان، مثله تماماً مَثَل نمو النبات.

ورداً على سؤال: ماذا يتعيّن على الانسان ان يفعل اذا ما وجد نفسه في وضع عاملٍ أجير زمنَ التراكم الأوّلي للرأسمال؛ او في مثل حالة نزيل احد المعسكرات السوفياتية؛ او زنجي اميركي، او حتى رجل يموت من جراء مرض عضال او مشلول أقعد نتيجة حادث سيارة؟ يجيب جيلاس قائلا: «أولاً وقبل كل شيء، ما من انسان سليم من الوجهة العقلية يشعر بانه مغترب (بالمعنى الذي قصده ماركس - م.م.)، لأن الطبيعة تختلف عنه، او لأنه لا يستطيع الاحاطة بعملية الانتاج التي تم على يديه هو؛ وإنما كل ما يشعر به، هو، ببساطة، انه تلقّى تعليماً غير كافٍ او كوفيء مكافأة غير عادلة». وفي هذا، كما نرى، تحاشٍ للمسألة. نقول ذلك لأنه إما ان تكون الحياة التاريخية للانسان مبنية على قوانين معينة لا قدرة له على التأثير فيها بأي شكل من الأشكال (وجيلاس لا يقرّ بذلك؛ حسبنا ان نستذكر هنا إطراءه المفرط للاغتراب بوصفه النتاج الصادر بحرية عبقرية الانسان)؛ أو أن يكون التقدم وقفاً على الانسان، وفي هذه الحالة، تغدو القضية الأساسية متعلقة بغاية هذا التقدم والاتجاه الذي يسلكه وصولاً الى تلك الغاية.

وإذا افترضنا وجود إمكانية لاختيار غاية التطور التاريخي واتجاهه، فذلك يعني ان الانسان لا يخضع، إلا جزئياً فقط، لسُنَن الطبيعة، أي انه يحمل في قرارة نفسه شذرة من شيء لا وجود له في ما تبقى من الطبيعة... وهي بهذا المعنى شذرة غير طبيعية، أو قلْ فوق طبيعية، تلك هي الحرية، الارادة الحرة. ولو لم تكن «علموية» القرن التاسع عشر قد أعمت بصيرة ماركس، لكان قد أنكر الحتمية التاريخية - الاقتصادية للتطور الاجتماعي، ولنادى عوضاً عن ذلك بأنه، وإن كان التقدم التاريخي لا يؤدي الى الشيوعية، فبالامكان خلق «ملكوت الحرية» بالنضال من اجله، تماماً كما يحدث عادة إنما كان سيتعيّن على ماركس، في تلك الحالة، ان يعترف باثنينية الانسان الفعلية، لأنه لا مكان للارادة الحرة - الروح، كما يسميّها الدين - في العالم التاريخي - الطبيعي؛ في حين كانت جهود ماركس منصبّة كلها في اتجاه احتواء الفكر الانساني ضمن إطار التاريخ الطبيعي.

غير ان هذه المسألة ليست مطروحة اصلاً، بالنسبة الى جيلاس، نظراً الى انه يتحرك عفوياً على صعيد تاريخي وقفاً عليه وحده: «هل انطلق اي مفكر ديني خلاّق في عصرنا من اثنينية بديهية للانسان؟ ومع ذلك فهذه الاثنينية تمثل ذلك البُعد الآخر الذي يفصل الانسان عن الواقع التجريبي - التاريخي المتفرد، والذي يظل خارج ادراك كل من جيلاس وخصمه الايديولوجي هربرت ماركوز الذي يبقى، رغم «ثورجيته»، انسانا ذا بُعد واحد، اي الانسان التاريخي.

أما السبب الكامن وراء انكار ماركس الكلّي لاثنينية الانسان والذي جعل لينين يتميّز غيظاً لدى

سماعه أدنى اشارة لـ «الغيبية الدينية»، فهو انهما كانا مضطرين، بغية تحقيق الغاية التي يؤمنان لها، الى إقناع الناس بأن الاغتراب، اي غياب الحرية، ناجم عن الظروف التاريخية ـ الاجتماعية حصراً، وانه لا سبيل الى إزالة ذلك الاغتراب إلاّ باحداث تغيير جذري في تلك الظروف.

لنرَ بأية لغة دينية وصف ماركس «ملكوت الحرية»:

«الشيوعية... هي الحل الحقيقي للتعارض ما بين الانسان والطبيعة، ما بين الانسان والانسان... ما بين الحرية والضرورة؛ ما بين الفرد والسُلالة. انها الحلّ للغز التاريخ، وهي تعرف نفسها بانها ذلك الحل»[٣].

لو لم يعش ماركس في القرن التاسع عشر لكان كتب، بالتأكيد، في البيان الشيوعي، بأن كل من يسقط صريعاً وراء متاريس الجهاد في سبيل الشيوعية سوف ينعم بحياة أبدية في «ملكوت الحرية» العتيد. ولكن ماذا عن تلك الحياة عندما يكون «الملكوت» تاريخياً؟ إن أولئك المفكرين الذين ينكرون وجود المطلق مكرهون على إضفاء صفة المطلق على النسبي. وقد كان إضفاء صفة المطلق على التاريخ والبرهان الدّال على الحتمية الاجتماعية ـ الاقتصادية المستبعِدة لحرية الاختيار فيما خص المستقبل، كانا أمرين ضروريين بالنسبة الى ماركس كي يُتاح له اجتذاب الناس نحو اختياره هو للمستقبل. ذلك انه من الجلي بما فيه الكفاية ان مأساة الحياة البشرية على وجه الارض لا تكمن حصراً في النظام الاجتماعي ـ الاقتصادي الذي يفرض العبودية، كما لا يُمكن لتلك المأساة عينها ان تُحلّ بواسطة الثورات الاجتماعية. إن جيلاس مصيب تماماً في لفت نظرنا الى تلك الحقيقة، وبشكل أخصّ عندما يتصدى لمقولة ماركس بأن جذور الاغتراب كامنة في تقسيم العمل. فمن البيّن ان درجة عالية من التطور التقني هي وحدها التي تفرز تقسيم العمل.

لكن جيلاس يخطىء عندما يقول بأن «ما من انسان سليم من الوجهة العقلية يشعر بأنه مغترب، وانما (...) تلقى تعليماً غير كافٍ او كوفىء مكافأة غير عادلة». فالعالم ما يزال معتلاً ومغلولاً حتى ولو سلّمنا جدلاً بأن احد تجليات الاعتلال هو ظهور توتاليتارية من النمط الشيوعي كالتي يُناهضها جيلاس بكل قواه وجهوده العقلية.

* * *

من الحُجج المُساقة ضد الماركسية، والتي تحظى على ما يبدو بأهمية استثنائية لدى جيلاس، الادعاء القائل بأن الماركسية ليست عملية، او بالحري، ان المنطلقات بالنسبة الى تكهّنات ماركس لا تتفق أبداً مع الحقائق الثابتة علمياً.

علاوة على ذلك، يؤكد تطور التاريخ ان الطبقة العاملة لا تزداد فقراً من جراء ضغوطات الرأسمالية وانما تزداد، في الواقع، غنىً، وان الثورة الاشتراكية قد انتصرت في البلدان المتخلّفة بدلاً من البلدان

الأكثر تقدماً كما اعتقد ماركس؛ وان إلغاء الملكية الخاصة ولَّد طبقة حزبية ـ بيروقراطية جديدة ولم يؤد الى إرساء أسس المجتمع اللاطبقي... وهلمجرا.

كل ذلك صحيح قطعاً. وهذه الحقائق كلها تُشكل أيضاً حُججاً يُمكن استخدامها ضد جيلاس. والغريب في الأمر ان جيلاس لم ينتبه الى ان قوله «الماركسية ليست علماً بل إيمان»، وان ماركس نفسه آمن أولا بالشيوعية ثم سعى بعد ذلك الى إثبات إيمانه، قد يوحي «ظاهرياً» بأننا نتعامل هنا مع واقعين مختلفين: الايمان بامكانية تحقيق «الفردوس الارضي» ضمن إطار التاريخ؛ والعلم كعامل محايد بالمستطاع توسّله لتحقيق أية غاية. ويشير كتاب «المجتمع غير الكامل» بوضوح الى ان جيلاس نفسه كفّ اولا عن الايمان بالشيوعية، ثم لاحقاً فحسب وجد البيّنة العلمية على وجوب عدم الايمان بعد الآن.

ان العلم، في حدّ ذاته، لا يقول شيئاً سواء لصالح التعاليم الشيوعية أم ضدها. كما أنه لا يُحدّد ولا يقترح أية أهداف انسانية، وانما هو ذاته مشروط بالاهداف المحدّدة سابقاً. فالواقعة المثبتة علمياً في ان العمال مستَغَلوّن او ان المثقفين محرومون من حرية التعبير، هذه الواقعة لا تستتبع، بالضرورة، الاّ يكون العمال مستغَلّين أو ان تكون حرية الكلام مكفولة. وبالمثل، فان الحقيقة العلمية القائلة بأن انشطار الذّرة يُطلِق مقداراً هائلاً من الطاقة لا تنص، تلقائياً، على وجوب انتاج القنبلة الذرية او حتى بناء محطة ذريّة لتوليد الطاقة الكهربائية، ناهيك عن فرض حظر دائم على جميع الابحاث الذرية. فالعلم يُعطينا الجواب بخصوص ما يتعيّن عمله، ويُحدّد لنا الطريقة الواجب توسلها بغية بلوغ غاية معينّة. غير انه لا يُحدِّد لنا الغاية نفسها، حتى ولو كانت المعرفة العلمية غايته الخاصة. ذلك لأن الغاية، في مثل هذه الحالة، هي شرط مسبق وليست نتاج العلم. كما ان العلم، من جهة أخرى، لا يأتي بذكر عن الحاجة الى مجتمع عادل، تماماً شأن علم الأمراض (الباتولوجيا) الذي لا يتحدث بتاتاً عن ضرورة ان يكون الانسان سليماً من الوجهة الصحية. فالحاجة الى مجتمع عادل لازمة لعلم الاجتماع (السوسيولوجيا) فقط لزوم الحاجة الى جسم سليم بالنسبة الى الطب، حتى ولو كان في المقدور إجراء أبحاث علمية في هذه الحقول بهدف تحقيق أغراض معاكسة تماماً، كما يدلّ على ذلك تاريخنا الحديث.

يتلخص الإيمان الأساسي للشيوعية في انه بالمستطاع تحقيق «ملكوت الحرية» ضمن اطار التاريخ، وتأمين التقدم الاجتماعي ـ الاقتصادي على يد «قابلة التاريخ» ـ العنف ـ ازاء هذه القاعدة الجوهرية للشيوعية، تتبدّى اية حقائق علمية مهما كان نوعها، غير ذات موضوع، او في أحسن الأحوال، ذات أهمية ثانوية. ولعل أفضل مثال على ذلك ثورة أوكتوبر ولينين، وهو بالضبط المثال الذي ساقه جيلاس في هجومه على المثل الشيوعي الأعلى.

صحيح ان لينين أوقف كل تعاليم ماركس بشأن مقولة «البنية التحتية تُحدّد البنية الفوقية» على

رأسها، وذلك من خلال اقتناعه بامكانية إحداث الثورة الاشتراكية في بلدٍ الرأسمالية فيه غير متطورة وبمساعدة طبقة عاملة ضئيلة العدد الى درجة جديرة بالاهمال، وإيمانه بأن مثل تلك البلدان تُمثّل في الحقيقة «الحلقة الأضعف» في سلسلة الامبريالية. إن أضعف الحلقات، بالنسبة الى ماركس، هي تلك البلدان حيث الرأسمالية متطورة الى حد بعيد وحيث البروليتاريا تُشكل الطبقة الأكثر عدداً. ومع ذلك، فلجيلاس كل الحق في ان يُسمي لينين ماركسياً. والكلام نفسه ينطبق على ستالين لجهة قوله بـ «الاشتراكية في بلد واحد». فستالين ماركسي هو الآخر، وجيلاس في ذلك أيضاً على حق. ولكن، هل كان سيُلحظ ثمة تغيير ذو شأن في صورة الديكتاتورية الشيوعية لو ان طليعة «المغتربين المستلَبين» اليوم (الزنوج، الطلاب، الخ) قد احتكرت السلطة في أيديها، بدلا من طليعة الطبقة العاملة التي تنعم اليوم بقدر من الرغد يشغلها عن التفكير بالثورة؟ كلا، لا أظن ذلك. وحتى لو كان الأمر كذلك، فهل تبقى بعدئذ ثمة اهمية تُذكر لثبات بُطلان نبوءات ماركس حول التطور التاريخي؟

إن روح الشيوعية، أي بناء «ملكوت الحرية» عن طريق قوة العنف الدنيوية، ما برحت اليوم حيّة، كما كانت في أيام ماركس، إن لم تكن أكثر حيوية بكثير؛ وما من «حقيقة علمية» يُمكن أن تُساق حجة ضدها. لا بل يمكن القول، حتى ولو انطوى قولنا هذا على تناقض ظاهري، ان الماركسية كانت دائماً موجودة، لكنها في القرن العشرين، وفيه فقط، تأتّى لها ان تحرز مثل ذلك التوسّع المنقطع النظير.

على الرغم من ان الماركسية ليست علمية، فان الايمان العلمي والايمان الماركسي متماثلان، متشابهان كأخوين، نظراً الى أنها كليهما يقومان على أساس الغلبة (الهيمنة) التصاعدية على العالم والطبيعة؛ وبالنظر الى انها كليهما أيضاً يتّسمان بطابع انساني يتبنّى وجهة النظر البديهية القائلة بأن القوة تهب الحرية. وهذه الغلبة - كما رأينا - يسميها جيلاس «اغتراباً». بقي ان نُشدّد مع ذلك على ان الايمان بالعلم والعلم نفسه ليسا، بالضرورة، متطابقين.

* * *

ان جيلاس، برأيي، محق كل الحق في اعتباره الفلاسفة الماركسيين، او بالحري النيوماركسيين، الحاليين فلاسفة من الدرجة الثانية. ولكن يبدو لي ان اعتقاده بأن الذي يُبقي مذهب ماركس حياً هو، بالدرجة الاولى، تطوّره الى واقٍ من «البُنى الاشتراكية البيروقراطية»، اعتقاد خاطىء.

- هل تدعم سلطة الدولة حقاً اليسار الجديد؟

- هل تكتسب النيوماركسية حقاً سمات مؤسساتيه؟ إنني، شخصياً، ما زلت لا أرى مثلاً أعلى شاملاً يُمكن ان يُقارن بالماركسية، ولا حتى عند جيلاس نفسه، للأسف. ان خطر التوتاليتارية الانتكاسية من قبل

اليسار الجديد لا يكمن في الزعم المبرَّر بأن الناس في عصرنا مصابون بـ « الاغتراب » (بالمعنى الماركسي للكلمة). وغير أحرار ، بقدر مايكمن في الاعتقاد بأن في وسع الدكتاتورية والعنف ان يُطلقا حرية الانسان.

إن مطلق عنف موجّه نحو « تنظيم أفضل للحياة الانسانية » لا بد ان يكون مرتبطاً وثيق الارتباط بالعمى الروحي وبالاعتقاد القاصر بوجود بُعد واحد للحياة، أعني البُعد التاريخي. وطالما بقينا أسرى هذا البُعد الواحد، لا يسعنا تفادي العنف حتى ولو استُبدل عنف التقنوقراطية ذو الأساس العلمي، بعنف الحزبوقراطية. ولكن بما ان الانسان يُمثّل، على حد وصفٍ بَطُل استعماله، جسراً ما بين عالمين، العالم الروحي والعالم الطبيعي، فانه، نتيجةً للعمى الروحي الناجم عن انتشار العقلانية والايمان العلمي، يجري اسقاط الصبْو الحقيقي باتجاه المطلق على المجال التاريخي ـ الاجتماعي، الذي هو مجال نسبي بالنسبة الى حياة الانسان، ولا يمكن ان تتوفّر فيه سوى حرية نسبية. وحتى هذا المجال لا يُعتبر مجالاً تاريخياً متأصلاً، جوهرياً؛ بل انه متوقف بكليته على البُعد الماوراء ـ تاريخي للروح.

ليست الروح حصيلة السيرورة التاريخية بل علّتها! لهذا السبب، يتعذّر دحض ماركس او اليسار الجديد بالتحرك على الصعيد نفسه: الصعيد الطبيعي ـ التاريخي. بكلام بديل، إن ذلك غير ممكن إلا عن طريق قهر الماركسية روحياً؛ وهذا يعني التغلب على الإيمان بالبُعد الواحد ـ البعد التاريخي للحياة ـ.

ذلك هو النقد الإلحادي، الشرط المسبق لأي نقدٍ للهمجية الحديثة ـ على حد تعبير ماركس ـ ما دام الإيمان يتجسّد في البُعدية الاحادية، في الكينونة « المغتربة » عن مجال الروح، يعني عن الحرية.

* * *

في كل الأحوال، يبدو ان الاختراق للوصول الى الأبعاد الاخرى للحياة يستلزم، وجوباً، سيرورة روحية تبدأ بانهيار الايمان بالشيوعية، وانه بدون ذلك الايمان وسقوطه يصبح مثل هذا الاختراق مخلخلاً للغاية. وبالامكان القول دونما تحفّظ ان أول من فعل ذلك هم أولئك المفكرون الروس في العقد الاول من هذا القرن، ممن سبق لهم أن أدخلوا الماركسية الى روسيا في أواخر التسعينات من القرن الماضي وشاركوا فيما يُسمّى بـ « الجبهة الماركسية الاولى ». انهم هم الذين تسنّت لهم فرصة مشاهدة الثورة الروسية الاولى عام ١٩٠٥. لقد ظل كل من برديائييف، ستروف، بولغاكوف، فرانك، وصحيفتهم « فيخي » في عام ١٩٠٩، وحتى يومنا هذا، معالم لا سبيل الى تجاهلها في كل الجهود الساعية الى التغلب على « الايمان الماركسي بالعنف ». وعلى مبعدة منهم، ولكن على الدرب نفسه، تقف الشخصية المعتزلة، انما أعظمهم طُراً، تلك هي شخصية ليو شيستوف.

ان تتبّع المسارين المتوازيين لعملية الانعتاق الروحي من أغلال الماركسية ـ مسار جيلاس، ومسار

ماركسي سابق آخر: بردياييف ـ لهو أمر مشوّق حقاً. فرجوعاً الى نهاية العقد الثالث من هذا القرن، نجد ان بردياييف أعطى تعريفاً ووصفاً وجيزاً، لا بل المفهوم عينه بالفعل، لـ «**الطبقة الجديدة**» الذي رأينا جيلاس، بعد ذلك بربع قرن، يتخذه أساساً لكتابه الأشهر. والشيء نفسه يمكن تكراره في ما خصّ فكرة ومفهوم «**المجتمع غير الكامل**» الذي وصفه نيقولاي بردياييف لعدة عقود خلت في كتابه «**مصير الانسان**». انني أعلم حق العلم بأن جيلاس لم يكن يدري بأمر كتاب الفيلسوف الروسي. وهذه العملية الانعتاقية المتماثلة من شأنها ان ترسخ في نفوسنا الأمل بأن جميع الذين يتخلصون، مع مرور الزمن، من الايمان الشيوعي على صعيدي الروح والحياة سينهجون النهج ذاته.

غير ان جيلاس، خلافاً لبردياييف، لم يصل بعد الى المرحلة النهائية من التغلّب على البُعدية الاحادية للسيرورة التاريخية. وذلك ظاهر بما فيه الكفاية في العمل الذي قمنا بتحليله.

مع ذلك، نرى شيوعياً سابقاً آخر، هو اغناتزيو سيلوني، يكتب في آخر مؤلفاته(٤) بان أعظم حدث في حياة الكثيرين من أبناء جيله هو الاكتشاف المتجدد للمسيحية خلال السنوات العشر الماضية. وما من ريب في أننا ها هنا أمام رؤيا، وليس أمام **معرفة علمية**. حيث ان اكتشاف بُعد آخر هو ما يهب الانسان القوة على مقارعة قوة العنف التاريخي لأي نظام أو منظمة توتاليتارية، بما في ذلك الكنيسة التاريخية.

ولأن شطراً من الانسان لا ينتمي الى العالم الطبيعي ـ التاريخي، فانه لن يموت، على الأقل في ما يتصل بذلك الشطر من الانسان الذي لا يمتّ الى هذا العالم. من هنا فان قوة هذا العالم ليست مطلقة. ولا يتأتى تفسير ذلك من ان خلود الروح («الأنا» الأعمق في كل واحد منا، جوهر الحرية) مرهون على أي حال بالأخلاق او بالضرورة، أو بما يشبه ذلك، وانما فقط من ان خلود الروح هو، في الواقع، موجود (رغم كل الأخلاقيات ان شئت). ولو لم يكن مثل هذا الواقع موجوداً، اذن لكان لينين وستالين منيعين حقاً لا يُقهران. ومن حسن الحظ انهما لم يكونا كذلك، على الرغم من كل الحملة المستمرة ضد الإقرار بوجود حياة للروح.

من كل ما تقدم، يمكن استخلاص النتائج التالية:

أولاً: ان نقد جيلاس لنظرية ماركس في الاغتراب ما هو إلا نقد ظاهري، سطحي، لأن جيلاس يبقى دائماً أسير ذلك المجال من الفكر الذي خلقته الماركسية. فهو بذاته القائل بأن الانسان لم يخلق لا الطبيعة ولا نفسه، إلا أنه لا يُدرك ان الانسان كان وسيظل عاجزاً عن خلق أكثر الأشياء لا طبيعيةً وبُعداً عن الاحتمال، أعني الحرية... حرية الارادة.

يؤمن جيلاس بأن الحرية ما هي إلا نتاج تطور انساني، ولا يرى في تلك الحرية شرطاً لازماً لأي تطور؛ وترتيباً على هذه الحقيقة بالذات، لا يمكن ان تكون للحرية جذور تاريخية. ان تجسيد الحرية، الذي كان

دوماً عينيّاً وتاريخياً، مسألة أخرى تماماً؛ بيد ان مسألة تقدم وارتقاء الحرية تظل موضع نقاش ومثار جدل الى أبعد الحدود. إن النضال المتواصل في سبيل الحرية عبر التاريخ لا بد ان يقطع بأن الانسان انما فُطر أصلاً على الحرية؛ وما كان لأية خرافات عن «سقوط» الانسان، أو عن «اغترابه»، أو ـ أخيراً وفي شكل تبلورها الأخير ـ عن عُصابه... ان تخرج الى حيّز الوجود على الاطلاق لو كانت الحرية نتاج التطور فحسب. ان ثقل اللاحرية المرهق لا يحسّ به إلا من كان ذات يوم، أو كان في أعمق أعماقه، حُراً ولكن زُجَّ به في وضع تقييدي. ولقد أحسن فرانز كافكا التعبير عن ذلك بقوله: «من تراه يبكي مُلْكاً ضائعاً؛ أليس فقط مِلَكاً في المنفى؟».

ثانياً: ان جيلاس مصيب في تصريحه بان الانسان مغترب (غير حر). لكن نظريته وممارسته الهادفتين الى إزالة الاغتراب بناءً على العنف التاريخي، انما تُمثلان فقط شاهداً على انه هو نفسه انسان عميق الاغتراب (ليس بالمعنى الجيلاسي طبعاً)؛ وان مذهبه عن التحرر ليس، في الواقع، سوى الأمارة الدامغة عن اعتلاله، لا الدواء لهذا الاعتلال. الانسان مغترب، أجل، ولكن ليس عن «كائن جنسي» تجريدي ما، بل عن المركز الحقيقي خارج التاريخ لشخصيته هو، وعن الجوهر الباطني للحرية في داخليته (وبتعابير دينية، هذا الجوهر هو ان الانسان خُلق على صورة الرب). مغترباً كان ام منعزلاً... علينا ان نتذكر هنا ان الشيطان ـ «ديابلو» ـ هو العازل الاسطوري. وانه لمن السذاجة واللاعقلانية ان ينكر المرء وجود الاعتلال؛ لأن هذا الاعتلال موجود فعلاً، حتى ولو كان ماركس على خطأ في تشخيصه، وبالتالي في علاجه. ان ماركس يذكرنا، وفي العديد من النواحي، بنبي انجيلي لبّى دعوة الرب وتلقى المشيئة: «اذهب فاضرب على أبصار الناس حتى اذا نظروا لا يرون واذا أنصتوا لا يسمعون!». غير ان التاريخ المعاصر يُبين ان لعنة العمى لا تزال تلاحقنا.

ثالثاً: من غير اكتشاف حقيقة الأبعاد الأخرى للصراع، يستحيل، نقد الماركسية من أية وجهة نظر علمية مهما كانت، او الانتصار على التوتاليتارية. فنظرية الماركسية وممارستها يمكن ان تتغيرا باستمرار: «الحلقات الأضعف» يجوز ان تكون في هذه المرحلة البلدان المتطورة، وفي مرحلة اخرى البلدان غير المتطورة؛ وممارسو «العنف الثوري» يمكن ان يكونوا مرةً أفراد الطبقة العاملة (البروليتاريين)، ومرة اخرى الفلاحين، ومرة ثالثة «الملونين»... الخ. لكن روح الماركسية نفسها، أي إقامة ديكتاتورية توتاليتارية، لا تفقد شيئاً في سياق هذا التبدّل. ففي صميم مرتكزاتها يكمن الجوهر الأعمق للتوتاليتارية بكل أشكالها: الايمان بأن القوة تهب الحرية. وفي وجه هذا الايمان بالقوة لا يمكن إلاّ ان ينتصب الايمان بأن القوة، مطلق قوة، انما تستعبد، وتستعبد أول ما تستعبد ذلك الذي يستخدم تلك القوة، وان مكابدة العنف دون مقاومة باطلةٌ بُطلان ارتكابه.

* * *

في آخر كتب اغناتزيو سيلوني، يوجّه بطل القصة الكلمات التالية الى غريمه، البابا، ممثل الملكوت الدنيوي ـ التاريخي:

« اذا ما ألقيتَ نظرة من خلال النافذة على درجات السلم امام الكاتدرائية، فسترى امرأة عجوزاً، متسولة، رثة الملابس، شعثة الشعر... شخصاً ما لا يعني شيئاً بالنسبة الى حياة هذا الكون؛ انها تجلس هناك من الفجر الى المغيب. ولكن، حتى مليون سنة، حتى ألف مليون سنة، ستبقى روحها حية في الوجود، لأن الرب اراد لها الخلود عندما خلقها. اما ممالك نابولي وفرنسا وانجلترا وسائر الولايات الاخرى بجيوشها وأساطيلها وكل ما عداها، فلسوف تؤول هكذا الى عدم »[٥]. ان لفي ذلك القول كل ما يجب ان يُقال عن « ملكوت الحرية » على الأرض وفي التاريخ... في التاريخ الذي ما كان ليُوجد على الاطلاق لو لم يكن هناك شيء ما فوق التاريخ (البعض يسميه الله، وآخرون الحرية، وبعض ثالث الغاية)؛ شيء لا يجمعه أي جامع بالسُنَن الطبيعية للتطور التي تحظى، دون غيرها، باهتمام العلم.

ترجمة سامي منير

هوامش

(١) باللغة الصربية ـ الكراوتية.
(٢) ماركس ـ انجلز: الاعمال الكاملة (زغرب، ١٩٦٧) ص٢٤٦ ـ ٢٤٩.
(٣) ك. ماركس: رأس المال، المجلد الاول (بلغراد، ١٩٤٧) ص٢٥٧.
(٤) اغناتزيو سيلوني: قدر مسيحي بائس (روما، ١٩٦٨).
(٥) المصدر السابق، ص٢٦٤.

زاهية.